الثورة المعرفية ومستقبل السيكولوجيا بالمغرب (*)

الغالي أحرشاو
شعبة علم النفس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ظهر المهراز، فاس

بداية، يسعدني أن أثمّن هذه المناسبة كتقليد أتمنى له دوام الاستمرار واطراد الإشعاع. وهو التثمين الذي أتوجه من خلاله بالشكر والعرفان إلى الطاقم الإداري للكلية وعلى رأسه السيد العميد الذي شرفني بدعوته الكريمة لإلقاء هذا الدرس الافتتاحي. كما لا يفوتني الترحيب بالزملاء الأساتذة والإخوة الطلبة والشكر الجزيل لحضورهم المتميز كميا والمميز نوعيا.

تتلخص الفكرة التي ندافع عنها في هذه الدرس في أن السيكولوجيا التي نتداولها ونتعامل بها في المغرب قد تقادمت وشاخت من حيث مصادرها ومرجعياتها وتصوراتها ومفاهيمها إلى الحد الذي أصبح معه الأمر يتطلب تغيير المسعى لصياغتها على أسس جديدة تتماشى ومستجدات السيكولوجيا المعرفية المعاصرة التي تشكل أحد الحقول الأساسية للعلوم المعرفية الحالية.

فالأكيد أن انطلاق هذه السيكولوجيا ذات الطابع المعرفي كاتجاه جديد في علم النفس في أوائل الستينيات من القرن العشرين قد غيّر بصورة جذرية طريقة تصورنا للنفس الإنسانية وأسلوب دراستها. فبراديغمها paradigme المعرفي الذي يعتبر الذهن كنوع من البرمجة المعلومياتية المستعملة للرموز المجردة يشير بوضوح إلى أن ثورة معرفية حدثت فعلا في مجال علم النفس. وهي الثورة التي رافقتها تحولات عميقة وخاصة على مستوى اتخاذ الذهن في معناه الواسع موضوعا، ومعالجة المعلومات

مسعًا منهجيًا، وبالتالي الإقرار بتجاوز عدد من السيكولوجيات السابقة بما فيها السلوكية. فالواقع أن هذه السيكولوجيا التي لم تكن تحظى بأي حضور قبل أربعة عقود من الآن، أصبحت هي المهيمنة حاليا على

(*) تشكل هذه الدراسة النص الكامل للدرس الافتتاحي للموسم الجامعي 2010-2011 الذي ألقاه الباحث يوم الجمعة 5 نونبر 2010 على الساعة 10 صباحا بمدرج باحنيني.

خارطة علم النفس. فقد أضحت تشكل الثورة المعرفية القائمة الذات التي لا يتردد أغلب علماء النفس في اتخاذها إطارا أساسيا للتعبير عن علم النفس بأكمله.

وقصد إضفاء صفة المصداقية على هذا الطرح القائل بتقادم السيكولوجيا المتداولة عندنا وبمعرفية السيكولوجيا المعاصرة، نرى ضرورة مقاربة مجموعة من القضايا الجوهرية التي نفترض فيها أكثر من غيرها قدرتها ونجاعتها على التعريف المقنع بالفكرة التي ندافع عنها بهذا الخصوص وهي على التوالي (أحرشاو، 1994، 2005):

1. مشاكل السيكولوجيا في المغرب

لكي تأخذ معالجتنا لأبعاد هذه القضية صفة المعالجة الدقيقة لا نرى محيدًا عن التطرق إلى ثلاثة مشاكل أساسية كلها تصب في اتجاه الإجابة على الأسئلة المحورية التالية: ما هي مواصفات وخصائص السيكولوجيا المتداولة عندنا في المغرب؟ ما هي معوقاتها الذاتية والموضوعية؟ وإلى أي حد يسمح النمط الثقافي السائد عندنا بقيام المعرفة السيكولوجية المطابقة والأدوات القادرة على إنتاجها والمؤسسات الهادفة إلى استثمارها؟

1.1. مشكل التأريخ والهوية

أكيد أن تاريخ ما يسمى عندنا بالسيكولوجيا لم يكتب بعد رغم بعض المحاولات المحدودة (أحرشاو، 1998؛ ربيع، 1998). ومرد ذلك ليس حداثة هذا العلم أو محدودية انتشاره بل هناك أسباب أكثر وجاهة من قبيل:

* الخوف من الدخول في مغامرة التأريخ لشيء مايزال يتخبط في متاهات البحث عن التأسيس والهوية. فعلى الرغم من أن انطلاقتها ترجع إلى السبعينيات من القرن العشرين، فإن السيكولوجيا ماتزال تعيش عندنا حالة مخاض عسير، بحيث تتجاذبها تيارات ونزعات سيكولوجية غريبة الطعم والمذاق وعجيبة الفهم والحكم ولا علاقة لها بالواقع المغربي إنسانا ومجتمعا.

* عدم التفطن بعد إلى أن إنتاجنا السيكولوجي ومهما كانت ضخامة تراكماته، لا يمكنه أن يتطور إلا إذا تم ربطه بوعي إبستمولوجي قادر على إبراز مواطن قوته ومكامن ضعفه. فالاستمرار في تجاهل أهمية هذا الوعي هو في الآن نفسه استمرار في توسيع مدار العقم والضياع الذي تتخبط فيه الهوية المعرفية للسيكولوجيا في المغرب.

* الاقتناع بأن السيكولوجيا التي تستحق التأريخ هي التي تمارس على أرض الواقع لا تلك التي تبقى بعيدة عن أي توظيف أو استثمار في سبيل تحقيق توافق الإنسان وتوازن المجتمع. فالأنماط الاجتماعية والثقافية السائدة عندنا لا تسمح بقيام المعرفة السيكولوجية المطابقة والمنهجيات القادرة على إنتاجها. فنحن ما نزال نفتقر إلى الظروف والشروط المجتمعية المواتية لبناء معرفة سيكولوجية هادفة وناجعة، تجمعها علاقة عضوية بخصوصيات الواقع ومقوماته الحضارية والاجتماعية والثقافية.

إلا أنه ورغم أهمية هذه الاعتبارات، فإن مسألة الرصد التاريخي لواقع السيكولوجيا في المغرب تبقى ذات أهمية بالغة خاصة إذا اعتبرناها كمنفذ أساسي للحكم على طبيعة ممارساتنا السيكولوجية وعلى مصداقيتها العلمية والتطبيقية. وإذا كانت بعض محاولاتنا السابقة وبمعية زملاء آخرين (أحرشاو، 1994، 1998، 2005؛ ربيع، 1998) تسير في نفس المنحى، فإن أبرز الخلاصات التي يمكن استحضارها بهذا الخصوص تتحدد في الآتي:

استثمارها مباشرة بعد استقلال المغرب في مدارس التكوين وبالخصوص مدارس تكوين المعلمين وبعد ذلك في مراكز التكوين الجهوية والمدارس العليا للأساتذة.

اعتمادها في أوائل السبعينيات من القرن العشرين كمواد للتكوين والبحث في شعبتي الفلسفة بفاس والرباط وفيما بعد بكلية علوم التربية، وهو الوضع الذي ما يزال على العموم مستمرا إلى حد الآن.

تحقيقها من السبعينيات إلى الآن لنوع من التراكم في الإنتاج الذي تترجمه مجموعة محدودة للغاية من الكتب والأطروحات الجامعية والأبحاث والمقالات والندوات التي قاربت بالخصوص موضوعات الطفولة والمراهقة والذكاء واللغة والنمو والتعلم وبعض الاضطرابات النفسية.

2.1. مشكل الإبداع والإنتاج

لا أحد ينكر أن تجربتنا السيكولوجية غنية ببعض المحاولات والمساهمات في مجال التعريف بالسيكولوجيات الأجنبية في نسخها الكلاسيكية المتجاوزة. لكن في المقابل لا أحد يمانع في القول بأننا، ورغم مضي ما يناهز ثلث قرن من العمل السيكولوجي، مانزال بعيدين كل البعد عن تأسيس منظومة سيكولوجية مطابقة لخصوصيات واقعنا ونوعيات مطامحنا ومستويات مشاكلنا. فالأكيد أن أغلب ما نتداوله من معارف سيكولوجية ليس من إنتاجنا، والأكيد أيضا أن المجال الذي يتحرك فيه فكرنا السيكولوجي لا يتعدى الحدود النظرية لبعض المنظومات السيكولوجية الأجنبية المتجاوزة. وهذا معناه أن نصيبنا من الإنتاج العلمي في مجال المعرفة السيكولوجية مايزال دون المستوى، بحيث لم يتجاوز في توجهاته العامة بعض المساهمات الانفرادية المعزولة المفعمة بالتذبذب والتعثر والانكماش. فهو ما يزال يتحرك في أكثر من اتجاه ويظهر بأكثر من مظهر حتى وإن كان ينطوي على درجة من التراكم الكمي. وهذا ما يبقيه مجرد تراكم كمي لا يرقى إلى مستوى التراكم المعرفي الذي من أهم مقوماته الخلق والإبداع بدل الاستهلاك والمحاكاة فقط لما هو متداول في المنظومات السيكولوجية الغربية الكلاسيكية. نقول هذا لأننا نعلم جيدا بأن الشروط المعرفية والمجتمعية للإنتاج في هذا

النطاق ما تزال عندنا جد محدودة نتيجة افتقارنا إلى وعي فعلي بالأهمية التنموية للمعرفة السيكولوجية وبالخصوص في مجال تأهيل الإنسان وتطوير المجتمع. فالسيكولوجيا كما تمارس في كلياتنا ومعاهدنا وحتى في بعض مؤسساتنا التكوينية والاستشفائية لا تتجاوز حدود التداول النظري البعيد عن أي تطبيق مباشر على واقنا المحلي. والحقيقة أن أسلوب التداول النظري هذا هو الذي يفسر واقع ظهور الباحث السيكولوجي عندنا بمظهر العنصرغير الفعال في إنتاج المعرفة السيكولوجية القابلة للتوظيف والاستثمار على أرض الواقع اليومي للإنسان المغربي.

فالأكيد إذن أننا ما نزال نواجه فقرا كبيرا في نطاق البحث والإنتاج السيكولوجيين، وذلك بفعل غياب الظروف والشروط اللازمة لذلك. والواقع أن الفقر المقصود يشكل نتيجة طبيعية لكل ما تتخبط فيه مؤسساتنا التكوينية ومراكز بحوثنا من مشاكل عدم الاستقلال الذاتي وضعف في التجهيزات المطلوبة وغياب التحفيز المادي للباحث الجاد، زيادة عن عدم الاعتراف بالدور الذي يمكن للسيكولوجيا أن تلعبه في شتى مجالات التنمية المتعلقة بالإنسان والمجتمع على حد سواء.

3.1. مشكل الاستثمار والتوظيف

على أساس أن السيكولوجيا المعمول بها عندنا هي سيكولوجيا مستوردة في صيغها الكلاسيكية المتجاوزة، نستهلكها دون أن نسهم في إنتاجها، فمن العبث المراهنة على تسخيرها لخدمة قضايا الإنسان ومشاكل المجتمع وخطط التنمية، وذلك لأسباب عديدة أهمها:

* غربتها عن الواقع المحلي بمختلف ظواهره ومشاكله وتحدياته، وبالتالي عجزها الواضح في دراسة خصوصيات هذا الواقع النفسية والاجتماعية والثقافية. وهو عجز يتحمل جانبا منه كل الممارسين لهذه السيكولوجيا لكونهم لم يفلحوا لحد الآن في وضع تصور معقول لممارسة سيكولوجية ناجعة على المستوى المحلي. فهم لم يتمكنوا بعد من تخطي مرحلة اجترار وترديد أهم مفاهيمها(السلوك، المثير والاستجابة، اللاشعور...) ونظرياتها الكلاسيكية (السلوكية، الجشطالت، التحليل النفسي...) على المستوى النظري

دون التفكير في أي تطبيق مباشر على ظواهرنا النفسية التي غالبا ينظر إليها كتابووات مقدسة لها قوانينها العليا التي تسيرها وتوجهها من حيث لا ندري ولانعلم.

* فراغها من روح الإبداع ومنطق الإنتاج المطابقان لهموم الإنسان المغربي وسلوكاته وتمثلاته وميولاته واعتقاداته وأحلامه. وبالتالي عجزها في وضع تصور علمي متكامل تجمعه علاقة وثيقة بالواقع الفعلي للإنسان بمختلف تطلعاته ومشاكله وتحدياته.

* افتقارها إلى أبسط الظروف والشروط اللازمة لإنتاج نماذجها العلمية وتسخيرها في المجال التطبيقي. فالمختبرات شبه منعدمة، والبحوث الميدانية التدخلية ذات الارتباط بمشاكل الناس ضئيلة، والمؤسسات التربوية والصناعية والصحية ماتزال غير مستعدة للاستفادة من خدمات ما يسمى عندنا بالبحث السيكولوجي.

إذن على أساس هذا التشخيص المقتضب لوضعية السيكولوجيا عندنا نشير إلى أنه ورغم أهمية بعض محاولاتها وجدّية بعض مساهماتها الفردية، فهي ماتزال تتخبط في متاهات ودوائر لا متناهية من المشاكل والصعوبات الموزعة بين ضياع الهوية ومحدودية الإبداع وتواضع الاستثمار. إنها ماتزال تعاني من فجوة متعددة الصور والمظاهر بين الإنتاج والاستهلاك، بين الإبداع والمحاكاة، بين التنظير والتطبيق، إلى الحد الذي يستحيل معه القول بقرب انفجار ثورة سيكولوجية محلية، قوامها المقاربة المباشرة لظواهرنا النفسية التي غالبا ما يُنظر إليها "كتابووات" tabous مقدسة والمساهمة الفعلية في المنظومة السيكولوجية العالمية.

ومن هنا نعتقد أن السبيل إلى تجاوز مثل هذه الوضعية المتأزمة يكمن أساسا في العمل على إعادة صياغة منظومتنا السيكولوجية على أسس وقواعد جديدة يؤطرها من جهة منطق التشبع بخصوصيات الواقع المغربي ومشاكله المختلفة، ويوجهها من جهة أخرى منطق الانخراط في سيرورة السيكولوجيا المعاصرة ومظاهر ثورتها المعرفية.

2. مقومات وخصائص السيكولوجيا المعاصرة

يهمنا في هذا التعريف المقتضب بمقومات السيكولوجيا المعاصرة وخصائصها البارزة التأكيد على التطورات العلمية المذهلة التي حققتها هذه السيكولوجيا على امتداد العقود الثلاثة الأخيرة، وبالتالي التنبيه إلى كل ما ينتظر العاملين عندنا في الحقل السيكولوجي من استحقاقات وتحديات كبرى لا يمكن النجاح في مواجهتها وربح بعض رهاناتها إلا بتغيير المنظور وتجديد المقاربة. فإذا كانت السيكولوجيا المعاصرة سيكولوجيا معرفية بالدرجة الأولى، فإن أهم مقوماتها وأبرز خصائصها هي التي يمكن إجمالها في الخلاصات الثلاث التالية (أحرشاو، 1998، 2005):

1.2. **الخلاصة الأولى**: قوامها أن علم النفس المعاصر، وقبل أن يصبح علما معرفيا أو علما للذهن، فقد عرف من حيث مساره التاريخي مرحلتين كبيرتين:

* **الأولى فلسفية** امتدت من العصور القديمة إلى أواسط القرن 19. وقد تميزت بهيمنة السيكولوجيا التأملية المبنية على متافيزيقا الروح. هذه الروح التي حظيت بعدة تصورات من قبيل اعتبارها كمبدإ للحياة عند أرسطو في العصور القديمة وكمبدإ للفكر عند ديكارت في بداية العصور الحديثة. لكن الفلسفة، وانطلاقا من القرن 18 الذي تميز بسيادة الاتجاه الأمبريقي مع هيوم ولوك والتصور المتصاعد للعلوم الطبيعية، حاولت إعداد ملاحظات وصفية بخصوص ظواهر الشعور كموضوع يحل محل الروح والاستبطان كمنهج يحل محل التفكير التأملي. بمعنى إحلال مفهوم الشعور المتخذ كمجموعة من المعطيات الملاحظة داخليا محل مفهوم الروح كمبدإ ميتافيزيقي. وبهذا أصبحت سيكولوجيا القرنين 18 و19 فرعا مستقلا نسبيا عن الفلسفة.

* **الثانية سيكولوجية** امتدت من أواسط القرن 19 إلى الآن، وتميزت بثلاث محطات علمية بارزة:

الأولى عكستها سيكوفيزيقا Weber وFechner وسيكولوجيا Ebbinghaus للذاكرة ثم سيكولوجيا Wundt التجريبية.

الثانية ترجمتها من جهة المدارس السيكولوجية المعروفة (السلوكية، الجشطالت، التحليل النفسي)، ومن جهة أخرى التيارات السيكولوجية الكبرى:

الأول طبيعي، يتخذ من العلوم الطبيعية: الفيزياء، الكيمياء والبيولوجيا نموذجه المحتدى. ويسعى إلى اكتشاف قوانين وعلاقات سببية باللجوء إلى التجربة الموضوعية. ويتحدد من الناحية السيكولوجية في تيارين فرعيين: أولهما هو تيار الموضوعية التجريبية الذي يمثله الروسي بافلوف بفيزيولوجيته حول النشاط العصبي المركزي، والفرنسي بييرون أحد رواد سيكولوجية رد الفعل، والأمريكي واطسن مؤسس المذهب السلوكي، وهؤلاء كلهم يشتركون في: **أ)** رفض الشعور كموضوع والاستبطان كمنهج, وبالتالي تفضيل السلوك والتصرف والفعل كموضوع والتجريب كمنهج، **ب)** النظر إلى الظواهر السيكولوجية كامتداد للظواهر البيولوجية، وبالتالي الاعتماد في فهم سلوك الإنسان على دراسة سلوك الحيوان أو تفسير المعقد بالمبسط. وثانيهما يتجلى في تيار التحليل الرياضي للنفس والذي يتوزع إلى محورين: أولهما يكمن في تطبيق علاقات النظام والقياس في ميدان علم النفس العام لإبراز القوانين المتحكمة في السلوك. وثانيهما يتمثل في تطبيق هذه العلاقات في دراسة الفروق الفردية، وخاصة مع كاتل، بينيه، بيرسون وسبيرمان بالنسبة للقياس النفسي.

التيارالثاني إنساني، يهتم بأصالة النفس وجوهريتها، ويؤكد على حالاتها الفردية وبنياتها الكلية ومعانيها الذاتية ويتحدد من الناحية السيكولوجية في: التيار الإكلنيكي والمرضي الذي تعود أصوله إلى طب الأمراض الذهنية مع بنيل وشاركو وعلم الأمراض العصبية مع جاكسون ونظرية التصرف مع جانيه ونظرية التحليل النفسي مع فرويد.

الثالثة تعبر عنها السيكولوجيا المعرفية التي أصبحت منذ أوائل الستينيات من القرن 20 تشكل بامتياز التيار المهيمن على حقل علم النفس بأكمله.

2.2. الخلاصة الثانية، مفادها أن مسار علم النفس التاريخي عرف تحولات وتطورات عكستها أساسا التغيرات التي لحقت:

* الموضوع الذي انتقل من الروح إلى الشعور إلى السلوك إلى النشاط الذهني.

* المنهج الذي انتقل من التأمل إلى الاستبطان إلى التجريب والقياس إلى التجريب والتقييس.

* الاتجاه الذي تحول من سيكولوجيا الروح والشعور إلى سيكولوجيا السلوك والفعل إلى سيكولوجيا الذهن والاشتغال المعرفي.

* البراديغم الذي تحول من براديغم "تأملي" إلى براديغم سلوكي إلى براديغم معرفي.

3.2. الخلاصة الثالثة، مؤداها أن علم النفس عرف ثورتين علميتين بارزتين (Le grand، 1990):

*** الأولى** تجلت في الثورة السلوكية التي أدت في العشرينيات من القرن 20 إلى تأسيس سيكولوجيا جديدة مغايرة جذريا للسيكولوجيات السابقة. إنها السيكولوجيا التي ستفرض من جهة مفهوما مفتاحا هو السلوك وبراديغما إجرائيا يتمثل في خطاطة (م - س) وبرنامجا للبحث يكمن في التعلم مع وضع الظواهر الذهنية وكل ما تنطوي عليه العلبة السوداء من وقائع (الوعي والقصدية) بين قوسين كبيرين. وستشكل من جهة أخرى ميدانا تجريبيا خالصا من العلم الطبيعي، يتلخص هدفها النظري في التنبؤ بالسلوك وضبطه قصد بناء علم للسلوك، قوامه مقاربة الأداءات الخارجية الصريحة والعمليات الفيزيولوجية القابلة للملاحظة والتجريب والقياس.

*** الثانية** وهي التي ستستأثر باهتمامنا أكثر، تجلت في الثورة المعرفية التي أفضت في الستينيات من القرن 20 إلى بناء سيكولوجيا جديدة مغايرة للسيكولوجيات السابقة بما فيها السلوكية نفسها. إنها السيكولوجيا المعرفية التي وباعتمادها على البراديغم المعرفي أحدثت تغييرات وأدخلت تعديلات جوهرية على مكونات المنظومة السيكولوجية

الحديثة، شملت بالخصوص العناصر التالية (Gardner، 1993؛ Reed، 1999؛ Richard، 1999؛ Tiberghien، 1989، 1999؛ Roulin، 2000؛ Kirouac، 2004):

أ) الموضوع والمباحث

فبخصوص موضوع علم النفس لم يعد يتحدد أصلا في الأشياء الخارجية القابلة للملاحظة من قبيل السلوكات والمثيرات والوضعيات وعلاقاتها، لكون هذه الأشياء ليست إلا وسائط أو وسائل مثودولوجية لدمج هذا الموضوع في المجال الكلي ومقاربة مكوناته وعناصره، بل أضحى يتمثل في مجمل الأحداث والوقائع التي تحدث وتحصل في "رأس" الكائن البشري. وبذلك أصبح علم النفس علما للذهن بعدما كان يشكل علما للسلوك (Andler،1987). فطبيعة الموضوع صارت تتحدد في الأنشطة الذهنية كما تحدث في أذهان الكائنات الإنسانية، وبالتالي في كيفية معالجة المعلومات واكتساب المعارف وتخزينها واسترجاعها واستعمالها.

وقد صاحب هذا التغير في موضوع الدراسة بزوغ لمفاهيم جديدة كالتمثل والمعالجة والاشتغال والمراقبة والتضبيط، وهي المفاهيم التي يرتبط بعضها بأسلوب استقبال المعلومات مثل التصفية والترميز Filtrage et Encodage وبعضها بصيغة المعالجة مثل ذاكرة العمل والمعالجة التصاعدية في مقابل المعالجة التنازلية، السيرورة الأطوماتيكية في مقابل السيرورة المراقبة، المعالجة التسلسلية Sequentiel في مقابل المعالجة الموازية Parallele، وبعضها باتخاذ القرار والتدخل مثل القصدية والغرضية والتخطيط،، وبعضها يتصل أخيرا بالاشتغال المعرفي في حد ذاته مثل مفاهيم الوعي والمراقبة والمطامعرفية.

وبخصوص التحول الذي لحق مباحث علم النفس فقد تجلى في التركيز على السيرورات المعرفية العليا المتمثلة في الإدراك والانتباه والتعلم والذاكرة واللغة والتفكير وحل المشاكل ثم اتخاذ القرار. وبالتالي تعويض التمييز القديم مثلا بين الذاكرة البعيدة المدى والذاكرة القريبة المدى بالتفريق بين الذاكرة الدلالية التي تقوم بتخزين المعارف

وتنظيمها وذاكرة العمل التي تختص بالمعالجة الوقتية العابرة Transitoire؛ بحيث تبلورت دراسة الذاكرات المتخصصة مثل الذاكرة اللفظية والصوتية والإدراكية. وإذا كانت اللغة أصبحت لوحدها تشكل الحقل المفضل للدراسة بعدما كانت شبه مغيبة، فإن موضوعات أخرى مثل سيرورات الانتباه والحكم والقرار ودور الانفعال والعواطف في المعرفية ثم اختلال الاشتغال المعرفي في حالات الاضطراب والشيخوخة أضحت هي الأخرى تحظى بمقعد الشرف في هذه السيكولوجيا التي يحكمها ويؤطرها البراديغم المعرفي (Richard، 1999؛ Reed، 1999؛ Kirouac، 2004؛ أحرشاو، 1997).

ب) المنهج والتقنيات

بخصوص المنهج العام فما يزال يتمثل في المسعى التجريبي في روحه العلمية ومبادئه الأساسية (الثبات – التنبؤ – التعميم). فكل التغيرات والتطورات التي لحقته تجلت أساسا في تقعيد خططه وتصاميمه وفي تطوير أساليبه وإجراءاته وفي إغناء أدواته وتقنياته. وبكلمة واحدة إن التحول الذي عرفه المسعى المنهجي كان على صعيد التداول والممارسة وليس على صعيد الروح العلمية والمبادئ العامة.

إذن فالمنهج المعتمد هو المنهج التجريبي الذي استفاد على امتداد قرن من الاستعمال والتداول من كل التعديلات التي طرأت على تقنياته وإجراءاته وأساليبه حتى أصبحت خاصياته تنحصر من منظور معرفي في العناصر الخمسة التالية:

1. **توحيد المسعى المنهجي العام** عوض التمييز بين مناهج تتعدد وتتنوع بتعدد وتنوع ميادين علم النفس. فكل هذه الميادين تستند اليوم إلى نفس المسعى المنهجي الذي هو تجريبي، بحيث أن القول بسيكولوجيا تجريبية كميدان مستقل ضمن ميادين علم النفس هو قول مردود ولا أساس له من الصحة في المفهوم المعرفي للسيكولوجيا الحديثة. وهذا مايؤكد لدى غالبية علماء النفس المعاصرين توحيد خارطة علم النفس من خلال تحطيم الحدود المصطنعة بين قاراتها الفرعية وتقريب حقولها التخصصية التي كانت جد متباعدة. وهكذا أصبح علم نفس النمو يشمل كل ما هو تكويني_ارتقائي لدى الطفل والراشد على حد سواء، وأصبح علم النفس المعرفي يتقاطع مع علم نفس

الشغل في سيكولوجيا التنظيمات Psychologie Ergonomique. والحال نفسه بالنسبة لعلم النفس الاجتماعي الذي أصبح يتقاسم مباحث التمثلات والتواصل والحكم والحجاج وأشكال التفكير مع علم النفس العام. وأخيرا فإن هذا التقارب أضحى يجمع من جهة علم النفس العصبي وعلم النفس التجريبي وخاصة في دراسة اضطرابات الذاكرة، ومن جهة أخرى علوم الأعصاب مع علم النفس المعرفي وخاصة في دراسة الوعي والقصدية والانتباه كمحاور صارت تفضلها علوم الأعصاب الراهنة.

2. ضرورة اعتماد النماذج والنظريات المُصَغَّرَة Micro-théories قصد نمذجة الأنشطة السيكولوجية، سواء في بعدها الاستقرائي Inductif المبني على الانتقال من الجزئي الخاص (الوقائع والأحداث) إلى الكلي العام (التصورات والفرضيات النظرية)، أو في بعدها الاستنباطي Déductif أو الافتراضي الاستنباطي Hypothético-déductif المبني على الانتقال من المفاهيم والأفكار إلى المعطيات والوقائع.

3. العمل بنفس المسعى المنهجي المتداول في سائر العلوم، بحيث أن ما تم التأكيد عليه في البعدين السابقين يوضح بجلاء تام أن المسعى المنهجي المعتمد في السيكولوجيا الحديثة هو مسعى كل العلوم. وعلى هذا الأساس يمكن مقارنة هذه السيكولوجيا ذات التوجه المعرفي بأي مجال من مجالات البحث، إذ أن طريقتها التي هي طريقة جميع العلوم ترتكز من جهة على إعداد نماذج تفسيرية انطلاقا من الملاحظات المنجزة ومن جهة أخرى التحقق من صدق هذه النماذج من خلال مواجهتها بالأشياء القابلة للملاحظة. فالفرق الوحيد الذي ما يزال قائما بالنسبة للعلوم المسماة بالدقيقة يتجلى في إمكانية إعادة إنتاج الظواهر المدروسة.

4. المسعى العلمي ومسألة الكونية والتعميم

كما سبق التأكيد على ذلك، فإن الكيفية المثلى لتحقيق التطابق المطلوب بين النماذج النظرية والملاحظات الأمبريقية تتحدد أساسا في التجريب L'experimentation. لكن المؤكد أيضا هو أن الملاحظة في الميدان أو في وضعيات ملموسة يمكنها في بعض

الحالات أن تستخدم بشكل جيد حتى بالنسبة للبراديغم المعرفي. فكل ما يهدف إليه الباحثون المتبنون لهذا البراديغم هو الوصول إلى خلاصات كونية بالمعنى المنطقي للفظ، مثل " يمكن لهذه الأحداث الذهنية او تلك، والتي تتمثل مظاهرها القابلة للملاحظة في هذه السلوكات أو تلك، أن تحصل بالنسبة لإي فرد ينتمي إلى الفئة المنطقية (س) ولكن شريطة أن يتحقق ذلك ضمن سياق أو وضعية من الوضعيات المبنية على الفئة المنطقية.

5. تقوية الترسانة التجريبية وإغناء الأدوات الكلاسيكية بتقنيات جديدة تندرج في إطار مايسمى باختبارات التشخيص المعرفي والمحاكاة المعرفية وبرامج المساعدة المعرفية والمعالجة المعلومياتية. وهي التقنيات التي أظهرت فعاليتها وبالخصوص في:

* قياس أزمنة ردود الأفعال في أعمال Sternberg(1998) لدراسة مدة معالجة المعلومة وضبطها وتحديد طبيعتها المتسلسلة أو المتوازية.

* قياس حركة العين كإحدى الوسائل المفضلة في دراسة القراءة.

* قياس الموجات الدماغية كتقنية لدراسة صيغ المعالجة وظواهر التوقع.

Electro-ancéphalographique (EEG)

* تقنية التفكير بصوت مرتفع (Thinking aloud) التي استخدمها كل من Simon و Ericson في حل المشاكل، حيث دافعا على فكرة أهمية تلفيظ طريقة تفكير المبحوث في فهم أفعاله ومقاصده وشكل تفسيره للوضعية التي يواجهها.

ج) الطبيعة والواقع

لمناقشة طبيعة الواقع (الموضوع) الذي تدرسه السيكولوجيا المعرفية المعاصرة يمكن الاعتماد على المنظورين المتكاملين التاليين (Kirouac، 2004):

الأول يرى أن الطبيعة العميقة للأنشطة الذهنية كما تحدث في عقول الكائنات الإنسانية، تتحدد أساسا في معالجة المعلومات، وبالتالي في اكتسابها وتخزينها واسترجاعها واستعمالها. فهذا المنظور يجسد بما فيه الكفاية الحدود التي يقارب ضمنها البراديغم

المعرفي الموضوع النفسي، بحيث أنه لا يولي إلى حد الآن أي اهتمام لكل ما يرتبط بالعاطفة، بالدوافع، بالانفعالات وباختلالات الشخصية. وهذه مسألة كثيرا ما يؤسف لها رغم أن الأمر الواقع هو الذي أصبح يفرض نفسه. فالتمييز بين الوجداني والمعرفي وبالتالي التركيز على مقاربة مكونات ومظاهر هذا الأخير أصبح يشكل المعطى الواقعي للبحث الذي عرفته العقود الثلاثة الأخيرة. وهو المعطى الذي ينظر إليه كثير من الباحثين كإجراء مقبول على اعتبار أنه ليس من الخطإ، وخاصة من الناحية المنهجية، اعتماد هذا التمييز المؤقت لمعالجة المشاكل بصورة تدريجية، وذلك في انتظار الفترة اللاحقة التي ستشهد بدون شك بلورة أبحاث ونماذج وجدانية- معرفية Affectivo-cognitifs أو معرفية وجدانية، والتي بدأت ملامحها تتأسس وتتعزز في الفترة الأخيرة من خلال أعمال ودراسات منتظمة الاطراد تترجمها وقائع كثيرة. المنظور الثاني يرى أنه إذا كان النشاط الذهني، كما جاء في المنظور الأول، يتحدد في معالجة المعلومات، فإن هذا النشاط هو في حد ذاته نشاط للدماغ. وهنا يطرح السؤال حول الدلالة الفعلية لهوية العلاقة بين نشاط الدماغ ونشاط الذهن؟. الواقع أن الحل النهائي لهذا المشكل لا وجود له في الوقت الحالي. فكل ما هو موجود إلى الآن هو هذا النوع أو ذاك من النزعات الاختزالية التي تأمل تعويض السيكولوجيا بالبيولوجيا وبالتالي اختزال نشاط الذهن في نشاط الدماغ كما يتجلى ذلك عند بعض البيولوجيين رغم الرفض الصريح والواضح لمثل هذا الاختزال من لدن السيكوفيزيولوجيين والبيوعصبيين (Delacour، 1997).

د) المشروع والبرنامج

* يتلخص مشروع السيكولوجيا المعرفية العلمي في المظاهر الثلاثة التالية:

- مقاربة بنية المعرفة وسيرورات تكونها قصد تفسير هندسة الذهن وأساليب تمثله للمعارف وتشغيلها.

- إحلال نشاط الذهن كمعالجة للمعلومات محل السلوك الذي أصبح يُعتمد كنقطة انطلاق لبلوغ وقائع أعمق مثل: التمثلات والمقاصد والوعي.

- الاهتمام بذات سيكولوجية مفردة في وضعية معينة وبكيفية اشتغالها ضمن سياق معين بعيد عن أي توجه يرجح كفة ما هو بنيوي على ما هو وظيفي أو كفة ما هو صوري على ما هو تداولي أو كفة ما هو كوني على ما هو محلي.

* أما برنامجها الذي يعكس مضامين وتوجهات هذا المشروع فيتجلى في نوع من النموذج المعياري المبني على المكونات الثلاثة الآتية:

- الذهن أو "المعرفية" عبارة عن نظام معرفي يختزن الصور والتمثلات والذكريات والأحلام والاعتقادات العابرة أو المستدامة، المنظمة أو الغامضة، الواعية أو اللاواعية. وهو يُستعمل في السيكولوجيا المعرفية في إطار ميادين محددة أهمها: الإدراك، الذاكرة، التعلم، اللغة، الذكاء، التفكير، الوعي وسيرورات الانتباه والإبداع وتوجيه النشاط.

- هدف السيكولوجيا يجب أن يتحدد في بيان كيف يشتغل الذهن وكيف تتكون أفكارنا وتمثلاتنا للواقع ثم كيف يفعل الإنسان ليفكر ويقرر ويحل المشاكل.

- يشكل النموذج الحاسوبي التمثلي Modèle computa-représentationnel الصيغة الأكثر تداولا للنموذج المعياري السابق الذكر، فهو يتمحور حول عنصرين اثنين:

الأول هو أن الذهن الإنساني يعالج المعلومات باستخدام التمثلات التي هي عبارة عن مجموعة من الرموز والصور والمفاهيم وذلك لإنجاز جملة من العمليات المنطقية (الاستنباط déduction، التعميم généralisation، التجميع assemblage). فقراءة رسالة أو اختيار مكان قضاء العطلة أو المشاركة في نقاش ما، كلها أنشطة ذهنية تعبّر عن استعمال التمثلات على شكل رموز وصور ومفاهيم.

الثاني هو أن السيرورة الذهنية تتحقق عند مستويات مختلفة عبر ثلاث مراحل أساسية:

- مرحلة تصفية المعلومات من خلال انتقاء أنجعها لإنجاز المهام المطلوبة.

- مرحلة تركيب المعلومات في أطر ذهنية محددة، بحيث عادة ما يفكك الإنسان المعلومات ويحولها إلى تمثلات ذهنية على شكل صور (وجه، مكعب) أو رموز (س، أ...)

أو مفاهيم (منزل، ذرة، حيوان). والحقيقة أن السيكولوجيا المعرفية عالجت بما فيه الكفاية سلسلة من التمثلات ذات المظاهر المختلفة (مثل الأشكال، الأنماط، النماذج الذهنية، الخطاطات، الفئات وحاليا النظريات) للتاكيد على قدرة الفرد على تفكيك الواقع وصياغته من جديد تبعا لأطر ذهنية محددة وخاصة في ميادين الإدراك البصري والذاكرة والتفكير، مثل فئة "طائر" التي نضيف إليها تلقائيا خصائص: له جناحان، يطير ويبيض، ناسين أحيانا أن الكتكوت لا يطير والديك لا يبيض وصحراء Gobi الجليدية ليست لا قاحلة ولا رملية...

- **مرحلة الحوسبة** computation التي تعني أن الفكر في كليته، بما في ذلك ما هو عامي، يمكن ترجمته إلى نوع من الجبر الذهني عبر عمليات منطقية كالاستنباط والاستقراء والمقارنة والقياس. فالإنسان في مواجهته لمشاكل الحياة اليومية يستخدم استراتيجيات ذهنية استكشافية. فهو في بحثه عن ساعة يده التي ضاعت منه أو في اختياره لسوق شراء المواد الغذائية نجده يستخدم جملة من الاستراتيجيات.

ولابد من التنصيص هنا على أن أحد محاور البحث في السيكولوجيا المعرفية سيتعلق بتعيين وتوضيح مثل هذه الاستراتيجيات التي يوظفها الفرد سواء أثناء التعلم والتمدرس أو أثناء حل المشاكل واتخاذ القرارات أو أثناء تحليل وتشخيص حالات ومواقف معينة.

٥) التحليل والاشتغال

تبعا للمقاربة المعرفية ينتظم التفكير عند مستويات معينة تمتد من السيرورات الأولية التي تمثل مستوى التفكير الآلي إلى السيرورات الأكثر تطورا التي تمثل مستوى التفكير الواعي. فرغم عدم الوصول حتى الآن إلى حصر العدد النهائي لمستويات التنظيم هاته إلا أن المؤكد هو وجود هندسة مركبة تنطوي على تفاعلات كثيرة بين الخلايا العصبية neurones ومجموعاتها ومجالاتها والاشتغال الكلي للذهن الذي يمكن التمييز فيه بين ثلاثة مستويات أساسية (Dortier، 1999):

* مستوى الأعصاب وهو أكثر أولية ويُنظر فيه إلى السلوك كانعكاسات أو كردود أفعال تتراوح بين السلبي والإيجابي.

* مستوى التفكير المنظم في قوالب متخصصة، وهو مستوى حاسوبي وسيط، يعتمد على العمليات المنطقية المركبة في معالجة الرموز المجردة.

* مستوى التمثلات أو المقاصد الواعية، وهو المستوى العالي الذي قد يتجلى في كتابة رسالة أو تركيب مقطع موسيقي يستدعي تعبئة تمثلات جد متطورة.

3. آفاق وخلاصات

حاولنا في المحور السابق تقديم قراءة موجزة لمقومات وخصائص المقاربة المعرفية في علم النفس. وقد قصدنا من ورائها عرض صورة حول معالم الإطار المبتغى الذي يجب أن تندرج فيه السيكولوجيا المأمولة عندنا إذا أرادت فعلا أن تبني نفسها على أسس وقواعد جديدة تؤهلها من جهة للانخراط في سيرورة السيكولوجيا المعاصرة ومظاهر ثورتها المعرفية وللمساهمة من جهة أخرى في إنتاج المعرفة السيكولوجية العالمية. وحتى نوضح بعض جوانب هذه الأسس والقواعد الجديدة سنخصص القضية الثالثة والأخيرة من هذا الدرس لبعض الخلاصات وللمسار المستقبلي الذي يوضح محددات وشروط العمل بالإطار السابق الذكر.

1.3. الآفاق المستقبلية

الراجح أن مستقبل السيكولوجيا المعرفية بما في ذلك السيكولوجيا المأمولة عندنا سيتوقف على علاقاتها العلمية مع تخصصات العلوم المعرفية وفي مقدمتها علوم الأعصاب Les neurosciences، ومن جهة أخرى على الكيفية التي ستطرح وستحل بها عددا من المسائل المطانظرية ذات الطابع الإبستمولوجي وعلى رأسها الإشكالات الثلاثة التالية:

أ) الأول يرتبط بفرضية فودور Fodor (1987) حول قالبية الذهن Modularité de l'esprit وخاصياته الحاسوبية وكل ما يصاحب ذلك من استلزامات معرفية. وهي الفرضية التي تقول بإمكانية تحويل المثيرات البعيدة عن طريق أنظمة إدراكية على شكل مجموعة من الرموز العصبية المماثلة Analogiques التي يمكن معالجتها بواسطة أنظمة مجاورة، منغلقة على نفسها وتتعلق بميدان معين كإدراك الألوان أو الأشكال أو الأوجه، عملياتها حسابية مفروضة، سريعة لا تخضع للوعي والمراقبة، مخارجها سطحية، تندرج من الناحية الفيزيقية في الهندسات العصبية الثابتة، وتظهر أخيرا تطورا فرديا متميزا.

وبخلاصة فإن هذه الفرضية تقطع بشكل نهائي مع النظرية الكلية Théorie Holistique للذهن التي لا تقبل التجزيء، وتركز على هندسة تسلسلية تصاعدية Bottom-up لوصف مجرى المعالجات المعرفية. وبهذا فهي تنفي دراسة السيرورات المعرفية المركزية Processus cognitifs centraux ذات المستوى العالي او تختزلها في أقصى الحالات في قوالب هامشية، لتنتهي بذلك إلى القول باختزالية عصبية Réductionnisme neurologique وبالتالي اختزال المركز في المحيط بدل إخضاعه فقط لهذا الأخير. وبهذا الطرح تكون القالبية الفودورية قد جانبت رهان بناء معرفانية سيكولوجية خالصة، لأن السلوكية نفسها التي كانت تحذوها مطامح بناء علم للسلوك لم تتخذ نفس الموقف ولم تنكر أبدا السيرورات المركزية، بل وضعتها مؤقتا بين قوسين (Tiberghien، 1999).

ب) الثاني يتعلق بمعرفة ما إذا كانت التفسيرات السيكولوجية للمعرفية قابلة لأن تختزل بالتدريج في تفسيرات بيوعصبية، وبالتالي إلى أي حد يمكن "تطبيع Naturaliser" الذهن؟.

إن مسألة الاختزالية البيوعصبية هاته ليست جديدة، لكن تطورات السيكولوجيا العصبية الحديثة، وبالخصوص تقنيات التصوير الدماغي Imagerie cerébrale، قد منحتها خصوبة أكبر ودعمت اعتقادها القائل بأن التفسير البيوعصبي عوض التفسير السيكولوجي، هو الذي سيسمح بتفسير طبيعة المعرفية وخاصياتها الجوهرية. بمعنى أن علوم الأعصاب هي التي ستضيء طريق السيكولوجيا في المستقبل. وفي اعتقادنا أن العكس هو الصحيح لأن علم النفس هو الذي سيضيئ طريق هذه العلوم والعلوم المعرفية عامة.

ج) الإشكال الثالث والأخير، يتمثل في عودة المواجهة بين علم النفس والفلسفة داخل ما يسمى بالعلوم المعرفية، حيث أصبحت الفلسفة ومن خلال فلسفة الذهن Philosophie de l'esprit تحاول تصفية حساباتها القديمة وأخذ ثأرها من علم النفس.

2.3. خلاصات أساسية

نعتقد أن السبيل إلى تجاوز الوضعية المتأزمة للسيكولوجيا بالمغرب يكمن في مجموعة من الإجراءات التي نجملها في الآتي:

* **العمل على إعادة صياغة هذه السيكولوجيا على أسس جديدة** يؤطرها من جهة منطق الانخراط في سيرورة السيكولوجيا المعرفية المعاصرة، ومن جهة أخرى منطق التشبع بخصوصيات الواقع المحلي بشتى ظواهره ومختلف مشاكله.

* **الانخراط في السيكولوجيا الواقعية التي تقارب مشاكل الناس وقضايا المجتمع** وبالخصوص مشاكل النمو والتعلم والتكيف والاندماج والضغط....إلخ وبالتالي غض الطرف عن كل السيكولوجيات التنظيرية والفرجوية التي عمَّرت عندنا حتى الآن.

* **إعادة النظر في طريقة تعاملنا مع المعرفة السيكولوجية**، إذ لا يكفي أن ندرسها في بعض كلياتنا ومعاهدنا النظرية لنقول إننا بلغنا مرحلة ممارستها علميا وعمليا. فتجديد

مضامينها النظرية وتحيين إجراءاتها المنهجية وتفعيل أهدافها التطبيقية، كلها شروط لا بد منها إذا أريد فعلا لمعارفها ولنتائجها أن تُسخَّر لخدمة الواقع المحلى الذي طالما رفعنا شعارات فهم مكوناته وعناصره، تغيراته وتحولاته، سلوكياته وذهنياته، مشاكله واضطراباته... ونحن في الحقيقة ما نزال نجهل أبسط مقوماته وخصوصياته.

*** نهج سياسة علمية مضبوطة تضع في مقدمة أهدافها تشجيع البحث العلمي في بعده السيكولوجي** وخدمته لبلوغ التصور المحلي المرتقب، مع العمل على توسيع المحيط الاجتماعي المدني الذي يساعد على انتشار العمل السيكولوجي الجماعي وبالتالي المشاركة في مختلف خطط التنمية الهادفة إلى خدمة الإنسان والمجتمع.

المراجع

الغالي، أحرشاو (1994). واقع التجربة السيكولوجية في الوطن العربي،بيروت، المركز الثقافي العربي.

الغالي، أحرشاو(1997). العلوم المعرفية وتكنولوجية المعرفة، مجلة معرفية، العدد:1، ص: 38-52.

الغالي، أحرشاو (1998). واقع البحث السيكولوجي في المغرب، في "العلوم الإنسانية والاجتماعية بالمغرب"، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي.

الغالي، أحرشاو (2005). العلم والثقافة والتربية، الدار البيضاء، النجاح الجديدة.

ربيع، مبارك (1998). مجالات علم النفس: إشكالية الموضوع والمنهج، في "العلوم الإنسانية والاجتماعية بالمغرب"، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي.

Andler, D. (1987). « Une nouvelle science de l’esprit ». Le débat, 47, 5-25.

Delacour, J. (1997). Une introduction aux neurosciences cognitives, De Boeck université.

Dortier,J.F. (1999). « La révolution cognitive », In J.F.Dortier. Le cerveau et la pensée, Paris, Eds. Sciences Humaines, 19-27.

Fodor, J. (1987). La modularité de l'esprit, Paris, Minuit (traduction française).

Gardner, H. (1993). Histoire de la révolution cognitive, Paris, Payot.

Le Grand, M. (1990). Du béhaviorisme au cognitivisme, l'année psychologique, 90, 247-280.

Kirouac, G. (2004). Cognition et émotions, Cimbra, Imprensa da Universidade.

Reed, S.K. (1999). Cognition, Paris, Bruxelles, ITP De Boeck Université, (traduction française).

Richard, J.F. (1999). De la psychologie expérimentale à la psychologie cognitive qu'est-ce quia changé : convergences et divergences ?, Psychologie Française, n° 44-3, 197-204.

Richells, M. (1987). Les cognitivismes, In M. Seguan (Edit.), Comportement, cognition, conscience, Paris, PUF, 181-199.

Roulin, J.-L. et all. (2000), Psychologie cognitive, Paris: Bréal.

Sternberg, R.J. (1998). Psychologie cognitive, De Boeck université.

Tiberghien, G. (1989). Psychologie cognitive et science de la cognition. In J.M. Monteil et M. Fayol : La psychologie scientifique et ses applications. Grenoble : P.U.G. (13-23).

Tiberghien, G. (1999). La psychologie cognitive suivra-t-elle aux sciences cognitives ? Psychologie Française, n° 44-3, 265-283.